



2015

حقوق الإنسان والإعلام لتعزيز الحوار الإنساني



د. أسماء الكتبي

إسفير أنترناشيونال

10/25/2015

حقوق الإنسان والإعلام لتعزيز الحوار الإنساني¹

د. أسماء الكتبي

مؤسسة ورئيسة مجلس إدارة إسفير أنترناشونال

asma@uaeu.ac.ae

ملخص

ثقافة الحوار الإنساني، جديدة قديمة، نواتها أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك، فلو أنطلقت من هذا الطرح لتوصل الطرفان المتصارعان إلى حل يرضي جميع الأطراف في وقت قياسي، فسياسة وضع الطرف نفسه في مكان الآخر تحقق الكثير من المكاسب.

والحوار الإنساني ضرورة بشرية أثناء الحروب، لإنهاءها ولتأسيس علاقات بين المتحاورين\المتخاصمين، توفر مناخات لعيش مستقر بين سكان الوطن الواحد، بعد عواصف من الخلافات، لذلك يجب أن لا يكون جدال في الحوار ولا معاندة، ويجب أن يكون بعيداً عن خلفيات الهيمنة والاحتواء، بل يدخله الأطراف وعند كلا الطرفين الاستعداد للتنازل، ليتم تحقيق الأهداف المرجوة.

وثلاثية حقوق الإنسان والإعلام والحوار الإنساني ثلاثية مثيرة للإهتمام، لكونها تجمع بين الأهداف والأدوات، فهي في أحيان أدوات، وفي أحيان أخرى أهداف، فحقوق الإنسان كانت هدفاً منذ أن بدأ الإهتمام بها بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية، والإعلام بالرغم من أنه أداة في معظم الأحيان، لكن الإعلام الهادف يصبح هدف يرغب للوصول إليه دعاة السلام، والإثنين أداة لتعزيز الحوار الإنساني، وبالرغم من أن الأخيرة تعد أداة للوصول إلى السلام، إلا أنه في هذا البحث هو الهدف، فهو المحور الأساسي فيه، كحل فاعل في خضم الأحداث الحالية المدمية، بالرغم من أنه فعل قديم قدم البشرية، لكنه كمصطلح قد يعد حديث، كحادثة الحضارة الإنسانية.

والحق الأول للإنسان أي حق الحياة، هو أول ما يؤخذ في الاعتبار عند الحوار الإنساني، ففي النزاعات المسلحة هذا هو أول الحقوق المنتهكة، وثم تلحقه الحقوق الأخرى بالإنتهاك كلما طال أمد الصراع، وبالرغم من توسع أنتشار الوعي بحقوق الإنسان في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين مع بزوغ نجم برامج التواصل الإجتماعي، إلا أنه حين قامت الثورات في الدول العربية لتحقيق مزيد من الحقوق لم تجني جديد بينما خسرت حتى الحقوق الأساسية بدأ بالحياة وأنتهاء بالتعليم والصحة.

وللإعلام دور مهم لترسيخ مفهوم الحوار الإنساني، فما زال هذا المفهوم مبهم للكثير في الدور العربية، فلقد تواجد بخجل في الإعلام العربي -بالرغم من قدمه- بعد أن تدهورت الأوضاع في الدول التي طالتها ثورات الربيع العربي، ويجدر القول أن الإعلام الداعي للسلام هو الذي يرسخ مفهوم الحوار الإنساني، لا إعلام التجييش والتحزب و البروباجاندا.

1. مقدمة

ثلاثية حقوق الإنسان والإعلام والحوار الإنساني ثلاثية مثيرة للإهتمام، فهي في بعض الأحيان أدوات، وفي أحيان أخرى هي الهدف، فالأولى كانت هدفاً منذ أن بدأ الإهتمام بها بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية، والإعلام بالرغم من أنه أداة في معظم الأحيان، لكن الإعلام الهادف يصبح هدف يرغب للوصول إليه دعاة السلام، والإثنين أداة لتعزيز الحوار الإنساني، وبالرغم من أن الأخير يعد أداة للوصول إلى السلام، إلا أنه في هذا البحث هو الهدف، فهو المحور الأساسي فيه، كحل فاعل في خضم الأحداث الحالية المدمية، بالرغم من أنه فعل قديم قدم البشرية، لكنه كمصطلح قد يعد حديث، كحادثة الحضارة

¹ المؤتمر الدولي: الاعلام وثقافة الحوار الإنساني-جنيف ، 24-25 أكتوبر 2015

الإنسانية. وفي هذا البحث سنتناول كل موضوع من هذه الثلاثية على حدة، ومن ثم سيتم الربط بين أداة التعزيز (الإعلام وحقوق الإنسان) بالهدف (الحوار الإنساني) في مبحث المناقشة والتوليف.

ولتبسيط تعريف الحوار الإنساني، يمكننا استخدام المشهد المتكرر في الأفلام الدرامية الأمريكية، حين تحاصر الشرطة شخصا مسلحا لديه رهائن، بغض النظر إن كان متمرس في الإجرام أم إنها جريمته الأولى، وبغض النظر إن كان هذا الشخص أجرم متأثر اجتماعي أو مخدر أو حتى بمرض نفسي، يتقدم أهم ضابط في الفرقة نحوه، يحاوره بهدوء، يحاول أن يقنعه أن يسلم السلاح، ويعدده وعود كثيرة بأن الأمور ستكون بخير، وإنهم سيحاولون التوصل لحل، ولأن هذا الشخص قد وصل لقناعة أنه لا يريد أن يواصل ما يقوم به، يستكين ويستسلم، وبمجرد أن يسلم سلاحه، يتم القبض عليه، وعادة لا ترى إن كان فعلا تم التوصل إلى حل وسط!

هذا بالضبط هو الحوار الإنساني، أنه حوار بين فئتين متحاربتين بالسلاح، يقرران أو يقرر أحدهما بأنه لا مزيد من استخدام السلاح، ويجب اللجوء إلى الحوار لحل المسألة العالقة، لكن متى يبدأ هذا، يعتمد على كمية العقل والمنطق التي في رأس المتحاربين، إن كانت كافية، فإن الحوار يبدأ منذ سقوط القتل الأول، لكن في معظم الأحوال، وخاصة في العالم الثالث، ينتج عن سقوط القتل الأول الانتقام، وتطور المسألة، وقد تصل إلى مالا نهاية، عندها ربما يفكر أحدهما بوجوب الحوار.

وعلى سبيل المثال، في الوقت الحاضر وبعد أربع سنوات من الحرب الضروس، نرى المآل النهائية في الشأن السوري، فخلال هذه الأربع سنوات من الحرب الأهلية، قامت إنقلابات وثورات في دول أخرى توصل فيها الطرقات للحل، كما في جنوب السودان وأوكرانيا، بينما في سوريا تزداد الأمور تعقيدا، مما يزيد من مأساة المدنيين فيها، وأعتقد أن السبب أن الكل يذكي النار في المسألة السورية، ومازالوا يفعلون، بينما نادرا ما وجد من يذكي النار في ذينك البلدين.

وبشكل عام، في أحيان كثيرة بالرغم من التلويح بالحوار، تفضل الفئات المتقاتلة القتال لتحقيق مكاسب على الأرض، تمهيدا لفرض الشروط حين الوصول لطاولة الحوار، بالرغم من أن المبدأ في الحوار -من وجهة نظري على الأقل- هو إبداء حسن النية، التي تعني حسن الخلق، لا إبداء القوة وفرضها.

وفي كل الأحوال وأثناء المآل لا نهاية للحروب، حين يتعذر الوصول لحل شامل لإنهاء الحرب القائمة، تتم حوارات جانبية من أجل هدنة يتم فيها توصيل المساعدات الإنسانية للمدنيين، الذين تسقط عليهم ويلات الحرب- دون أن يكون لهم يد فيها- وهنا أيضا يمكن الإشارة إلى الهدنة الأخيرة في سوريا -سبتمبر 2015- التي تمت برعاية الأمم المتحدة ووساطة إيرانية، وكانت بين حزب الله اللبناني، ومسلحي المعارضة السورية في مدينة الزبداني المحاصرين من قوات الحكومة السورية، وقضت الهدنة بالسماح بإنسحاب مسلحي المعارضة من المدينة، وهذا لتجنب نهاية دموية، مع شعور كل جانب بأنه حقق مكاسب على الأرض! علما أنه في شهر أغسطس من نفس العام جرى التوصل للإتفاق لوقف إطلاق النار لمدة 48 ساعة، بهدف إدخال الغذاء والإمدادات الطبية، وكان هذا بصعوبة بالغة.

وأخيرا، ربما كان الحوار الإنساني موجود منذ أن عرفت البشرية الحروب، لكنه في الوقت الحاضر هناك تداخل بين مفهومي الحوار الإنساني والحوار الوطني، لأنه عادة ما يتم هذا النوع من الحوار بين أبناء الوطن الواحد، ويعد حوار المصالحة الوطنية في جنوب أفريقيا عام 1995، من أشهر تلك الحوارات في العصر الحديث، التي تمت بين مواطنين مختلفين في اللون والأيدلوجية وحتى الثقافة والتاريخ، لكنهم مشتركين في الوطن، حين قامت تلك المصالحة على أساس القرار بإعطاء صلاحية منح العفو وعدم الملاحقات الجنائية وتحمل تبعة مدنية عن الجرائم التي ارتكبت باسم الفصل العنصري أو باسم معارضته، رغم أن أحزاب المعارضة قاومت الضغط الذي مارسته الحكومة لإصدار العفو الشامل، الذي أعتبر حينها أنه مغل لشروط تحقيق العدالة، ومضر بمصالح الضحايا وحقوق الشهداء، لكن العقلاء فقط يعرفون أنه حين لا يكون تقدم في الحوار يكون زيادة في عدد الضحايا من الصوبين. وفي هذا السياق، يجدر التنويه أنه آخر المصالحات الوطنية تمت في كولومبيا سبتمبر الماضي (2015)، بعد مفاوضات لسنوات طويلة، وتم على أساسها العفو العام أيضا.

2. الحوار الإنساني: مفاهيم مختلفة

وكأن القرن الواحد والعشرين قرن سيطلق عليه المؤرخون قرن الحوارات، فلقد أستهل القرن بمفهوم الحوار الثقافي، وحوار الحضارات، ففي السنوات الأولى منه 2000-2002 احتل هذين المفهومين مكان

الصدارة في قائمة إهتمام المثقفين والعلماء والمفكرين السياسيين والإجتماعيين، وحتى مراكز البحوث المحلية والدولية، لدرجة أن أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن عام 2001م عاماً للحوار بين الحضارات، وقبل ذلك بحوالي عام في يناير من عام 2000 كرس منتدى دافوس الاقتصادي العالمي جلسة تناولت ذات المفهوم.

والآن وفي منتصف العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، نجد أن مفهوم الحوار الإنساني يتداول بذات الشكل، في المنتديات والمؤتمرات العالمية، كما يتم تداوله اليوم هنا في مؤتمرها هذا، تماماً من نفس المدينة التي كان بها أول إنطلاقة لمفهوم الحوار الحضاري، لدرجة أننا لو أنتظرنا قليلاً، قد تعلن الأمم المتحدة أي عام من الأعوام القادمة عام الحوار الإنساني!!

ويجد القول أنه أثناء طرح مفهوم حوار الحضارات وحوار الثقافات، إختلفت طريقة طرح بين المفكرين العرب والمفكرين الغربيين، فبينما ركز العرب في دراساتهم على الصيغة الأيديولوجية، و"الأنا" و"الآخر"، والهوية والخصوصية والحداثة والعلمانية والدين والتراث، والعلاقة مع الغرب بفكره وحضارته، ركز الغرب على حقوق المرأة والحقوق الإنسانية الأخرى.

ونجد أن ذات التفاوت في الطرح اليوم بالنسبة للحوار الإنساني، فحينما يعتقد كثير من المثقفين العرب أن الحوار الإنساني هو ذاته الحوار الحضاري، نجد أنه في الغرب هو محاولة إيجاد لحل لمشكلات سياسية، وذلك من خلال التركيز على حقوق الإنسان، أو الحفاظ على حياة الإنسان. وخلصت لهذا من خلال تصفح المواد المكتوبة عن هذا المفهوم باللغة العربية، فبالإضافة إلى أن ما كتب عنها قليل جداً، نجد أن هذا القليل مبهم وغير واضح، لأن معظم الكتاب والمثقفين يخلطون بينه وبين الحوار الثقافي، أو الحوار الحضاري، وهذا ما يستشف من كليشة: "وإرساء لغة الحوار الإنساني من خلال الآداب والفنون"، التي يرددها كثير من الأدباء والفنانين العرب!

وعليه نجد أن دور الإعلام مهم لترسيخ مفهوم الحوار الإنساني، كما تم ترسيخ مفهوم الحوار الحضاري من قبل، فحين أنتشر مفهومي الحوار الحضاري، والحوار الثقافي بعد أحداث 11 سبتمبر، دعمتهما وسائل الإعلام العالمية، بينما لم يظهر الحوار الإنساني على واجهات الإعلام العربي -بالرغم من قدمه- إلا بعد أن تدهورت الأوضاع في الدول التي طالتها ثورات الربيع العربي كسوريا واليمن وليبيا، وفي نطاقات محدودة جداً، وغير واضحة للعامة وغير مفهومة.

علماً أن مفهوم الحوار الإنساني مورس نسبياً في العراق، لكن يبدو أنه مورس كفرع من فروع الحوار الثقافي، ولأن الإعلام العربي لم يركز عليه، لم تركز عليه وسائل الإعلام العربية أيضاً، ومورس المفهوم من خلال مركز الحوار الإنساني في بغداد ولندن، الذي أسس عام 2003، وكانت مرتكزات تأسيسه المصالحة الوطنية بين الشيعة والسنة بشكل خاص، ومن خلال قراءة أهداف المركز تشعر أن المشكلة ستستمر، وليست مرحلة من مراحل التحول للإستقرار، وهذا بحد ذاته لا يبشر بالخير، فالتأنيب لم تكن موجودة قبل الإحتلال الأمريكي للعراق، فيجب أن لا تكون موجوده على الإطلاق بعد أن خرجت أمريكا من العراق.

وهذا عكس المفهوم الذي أسس عليه مركز الحوار الإنساني الغربي الذي أسس عام 1999، ومقره جنيف، ولديه مكاتب إقليمية في أفريقيا وآسيا، والمعروف أيضاً باسم مركز جان هنري دونانت للحوار الإنساني، الذي هو عبارة عن منظمة تساعد في الوساطة بين الأطراف المتنازعة، يسهل الحوار في المواضيع السرية والمعلنة، ويفتح قنوات الإتصال ويتواصل بين أطراف النزاع، لمنع أو إنهاء الصراعات المسلحة، من أجل تأمين واستدامة السلام، ومعظم ما كتب في هذا الموضوع كان قد صدر عن هذا المركز (أنظر قائمة المراجع باللغة الإنجليزية).

والجدير بالذكر أن الحوار الإنساني نوع من أنواع التفاوض، فبينما يشمل التفاوض كل أنواع المفاوضات سواء كانت سياسية أو إقتصادية، فإن الحوار الإنساني عبارة عن تفاوض لإنهاء الحرب -إن صح التعبير- يكون فيها الخاسر رابح، بمعنى أن الربح للجميع، فهو ليس تحقيق مكاسب إقتصادية أو سياسية كما هو حال التفاوض، بالرغم أنه في الحالتين يحاول المتخاصمين الوصول إلى مخرجات مرضية للطرفين، وحل نقاط الإختلاف بينهما، لصياغة النتائج التي ترضي مختلف المصالح، لذلك هناك مفاوضات محترقون للسلام، كما هناك مراكز للحوار الإنساني.

وأخيراً، فإن الحوار الإنساني يعد ضرورة بشرية أثناء الحروب، لإنهاءها، ولتأسيس علاقات إيجابية بين المتحاورين\المتخاصمين، توفر مناخات لعيش مستقر بين سكان الوطن الواحد، بعد عواصف من

الخلافات، لذلك يجب أن لا يكون جدال في الحوار ولا معاندة، ويجب أن يكون بعيداً عن خلفيات الهيمنة والاحتواء، بل يدخله الأطراف وعند كلا الطرفين الإستعداد للتنازل، ليتم تحقيق الأهداف المرجوة من الحوار.

3. حقوق الإنسان لتعزيز الحوار الإنساني

عرفت الأمم المتحدة حقوق الإنسان بأنها حقوق أصيلة في طبيعة الإنسان يجب ان يتمتع بها الجميع، وهي ليست عطايا يمكن سحبها أو منعها أو منحها، ولقد ضمنت هذه الحقوق بضمانات قانونية دولية وعالمية، لحماية الأفراد والجماعات من إجراءات الحكومات، التي قد تمس الحريات الأساسية والكرامة الإنسانية.

وكانت الأمم المتحدة في عام 1948 قد أعلنت القيم الأساسية الكبرى لحقوق الإنسان، تلزم قوانينها الحكومات ببعض الأشياء وتمنعها من القيام بأشياء أخرى، وشملت تلك الحقوق: حق الحياة، والحرية، والأمان الشخصي، والمساواة، والعدل، وحرية الرأي والتعبير، والحق في مستوى معيشي مناسب، والحق في التماس ملجأ في بلدان أخرى بعيد عن الاضطهاد، والحق في تملك الممتلكات، والحق في التعليم، والحق في حرية الفكر والضمير والدين، والحق في عدم التعرض للتعذيب والمعاملة المهينة، وذلك ضمن حقوق أخرى.

وفي عام 1979 نشر البرتوكول الاختياري لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، وفي عام 1989 ظهر إتفاقية حقوق الطفل، وفي عام 1990 نشرت الإتفاقية الدولية لحماية حقوق العمال المهاجرين وإفراد أسرهم. ويرى البعض أن هذه الحقوق قد تدرجت من الحقوق المدنية والسياسية، إلى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، ثم الحق في البيئة النظيفة، لتنتهي بالحق في التنمية.

ومنذ التسعينات تطورت المعرفة بحقوق الإنسان في الإعلام العربي، نتيجة لإنتشار الفضائيات، وفي العقد الأول من القرن الواحد والعشرين صارت رائج بفضل برامج التواصل الاجتماعي، إذن الوعي بحقوق الإنسان صار بعافية، وتنفيذه في دول كثيرة بعافية أيضاً، حتى دول الربيع العربي كانت معظمها بها حقوق الإنسان الأساسية من حق الحياة والتعليم والصحة، لكن المحك في تلك الدول -كان ومازال- حق حرية الرأي والتعبير، وكان ينقصها في بعض الأحيان شيء من المساواة، لكنها فقدت أهم حق من حقوق الإنسان، وهو حق الحياة.

لذلك الحق الأول للإنسان أي حق الحياة، هو أول ما يؤخذ في الاعتبار في ثقافة الحوار الإنساني، ففي النزاعات المسلحة هذا هو أول الحقوق المنتهكة، ثم تلحقه الحقوق الأخرى بالإنتهاك كلما طال أمد الصراع، ولو أخذنا النزاع السوري، كمثال لإنهاكات حقوق الإنسان، سنجد أنه بعد إنتزاع الحق الأول من الإنسان السوري من قبل الحكومة والمعارضة وداعش على حد السواء، تهاوت الحقوق الأخرى المذكورة وغير المذكورة أعلاه الواحدة تلو الأخرى، فلم تحافظ تلك الثورات على الحقوق الممنوحة للمواطن السوري قبل النزاع، كما أنها لم تضيف له حقوق وحريات جديدة، غير حرية الشتم واللطم على صفحات التواصل الاجتماعي، وهذه حرية شملت جميع الدول العربية، سواء هب عليها الربيع العربي، أو لم يهب!

والأدهى والأمر، أنه الشخص السوري أنتهك حتى حقه في اللجوء إلى دول أخرى، حين تجاوزت أعداد النازحين منها إلى أوروبا مئات الآلاف، وهذا النزوح لم يكن سلساً ولا تلقائياً، بل كان عبارة عن سلسلة مراحل محفوفة بالمخاطر، وصلت إلى الموت في أحيان كثيرة، أحيانا أخرى أنتهك حتى حقهم في العبور للوصول إلى وجهة آمنة، ناهيك عن حياة المخيمات، التي تنقصها أساسيات الحياة الكريمة، فلا شيء يشبه الوطن فيها، ولا شيء يشبه البيت الذي تركوه حتى وإن كان متهاكاً، ففي بيوتهم المتهاككة، لا يموت أطفالهم من البرد! وهذا الشتاء قادم، ليتنا لا نرى مزيد من المآسي الإنسانية فيه.

ولم يفقد السوري فقط حقوقه في هذا النزاع، بل أن سوريا نفسها كوطن تم إنتهاك حرمتها، وذلك من الأغلبية العظمى في المعارضة والنظام على حد السواء، ناهيك عن الدول الإقليمية والدولية، الكل نهش وأخذ حصة من هذا الوطن العزيز، ففي النهاية هي سوريا فقط التي خسرت كل شيء، وفي هذا تشترك اليمن وليبيا، بالرغم من أن اليمن بدأت تتعافى بعد عاصفة الحزم.

والخلاصة، أنه في الحوار الإنساني يتعامل المتحاورين مع حقوق الإنسان من منظور سياسي، وليس إنساني بما تعنيه الكلمة بشكل حرفي، فالمكاسب السياسية هي التي تفرض كمية الحق الإنساني للمدنيين أثناء النزاعات، وهذا ليس بين الأطراف المتنازعة فقط، بل يتعداها للدول التي تستقبل اللاجئين من المناطق المتنازع عليها، سواء كانت مجاورة للمنطقة النزاع، أو بعيدة عنه، ما دامت ستحقق مكاسب إقتصادية وسياسية.

4. الإعلام لتعزيز الحوار الإنساني

الإعلام سلاح ذو حدين، حاله حال أي وسيلة ابتكرها أو طورها الإنسان، فهو إما أن يوظف في الخير والصالح العام، أو الإفساد والشر الكوني، وتقنيا يعد الإعلام مصدر تزويد الأنباء والأخبار والخبرات، والمعلومات والعلوم والمعارف، بهدف الإسهام في جلاء الحقائق، وتوضيح الوقائع، عبر الوسائل والوسائط الإعلامية، من إذاعة وتلفزيون أو صحافة، الذين غالبا ما يستظلون بمظلة وزارة الإعلام في معظم الدول، وفي العقدين الأخيرين شمل الإعلام وسيلة جديدة هي الشبكة البينية (الإنترنت)، وأصبح هذا النوع من الإعلام الأكثر تداولاً والأوسع انتشاراً، وبواسطته يستطيع مزاولوه طرح مشاريعهم السياسية والاجتماعية والإقتصادية، وربما الفنية والتعليمية والتوعوية أيضاً، من أجل صنع الرأي والاتجاه، تمهيداً لصنع القناعات، لذلك فإن ميدان الإعلام هو رسم قناعات الإنسان، والإنسان هو المحور في العملية الإعلامية فكراً ووجداناً.

مع بداية التسعينيات من القرن الماضي، فرط التحكم بالإعلام من يد الحكومات، مع إنتشار الفضائيات، لكن منذ نهاية التسعينات ومع إنتشار استخدام الإنترنت لم تعد المعلومة حكراً على أحد بالمطلق، لدرجة أنها صارت تقتحم حياة الناس عبر البريد الإلكتروني، سواء أرادوا أم أبوا، تماماً كما كان حال التلفزيون في النصف الثاني من القرن العشرين، حين أقتحم بيوت الناس وحياتهم، فلم تعد المعلومة أو الخبر حكراً على أحد، وفرطت الأمور تماماً وأختلط الحابل بالنابل مع بداية الألفية الثالثة، حين صارت وسائل التواصل الإجتماعي توصل المعلومة، كما توصل الإشاعة أيضاً، ونحن هنا لسنا ضد حرية الإعلام أو حرية التعبير، لكن الإعلام يجب أن يتحلى بشيء من المصداقية، وحرية التعبير يجب أن تشملها روح الاحترام للآخر، وإحترام لرموزه الدينية، وذلك لتوطيد وتعزيز التفاهم بين أبناء الشعب الواحد.

ولأن الإعلام موجه لرسم القناعات، والتجيش ضد الآخر، فإن 90% من الأخبار المنشورة بالوسائل أعلاه مغالطات إعلامية، فمسألة التحقق من الأخبار قبل نشرها في وسائل الإعلام الرسمية، مختلف عليها، وأحيانا تتعمد وسائل الإعلام النشر السريع، وعدم التحقق من الخبر وتنشره كنبأ، حتى إشعار آخر، طلباً للترويج، ويجدر القول أنه الفرق بين الخبر والنبأ، أن الخبر ليس بالضرورة صحيح، أما النبأ فهو الخبر الذي تم التأكد من صحته، والإعلام العالمي الحي يعتمد على الخبر، لا النبأ!

الأنباء تبدد الجهل، وقد تعزز روح التسامح وقبول الاختلاف والآخر، لأنها لا تذكي الفرقة والاختلاف، أما الأخبار فيتم التعمد نشرها على علاتها أحيانا، لأنه الغرض منها الفرقة والاختلاف، فما بالك بالأخبار الملفقة! فتلك حتما ستغذي سوء الظن، وتنمي الشك والحذر -الغير ضروري- من الآخر، وتزرع العداوة! وهنا يجدر التطرق للدعاية المضادة أو البروباجاندا Propaganda، فهذه حدث ولا حرج، فهي تخلق ليتم خلالها نشر المعلومات بطريقة موجهة أو ناقصة أي كاذبة، مستخدمين تقنيات وأساليب سيكولوجية عديدة: كتسمية الأشياء بغير مسمياتها، والتكرار، والتظاهر بمنح فرص الحوار والتعبير عن الرأي لجميع الاتجاهات، وإدعاء الموضوعية، بالإضافة إلى عوامل عدة أخرى. وهذا الخطاب الإعلامي الموجه والمشوش للحقائق لا تعاني منه دول وأقاليم سياسية بعينها، بل هي متبعه حتى في الخطاب الإعلامي العربي المتقدم.

إذن، إن كانت المخرجات الإعلامية كالأخيرة تلك، بالطبع فأنها ستعوق الحوار الإنساني، وتقطع السبل إلى التواصل، وتحول القريب إلى غريب، والأخ الإنساني إلى خطر محتمل، والجار المسالم إلى قوة شرسة تهددنا، ومع الفضاء الإعلامي المفتوح سواء على الفضائيات أو الإنترنت، فإنه من السهل التشويش على عملية الحوار الإنساني، لأن اللاعبين هنا، ليس أولئك أصحاب القضية المعنية، لذلك تكثر الدسائس من لاعبين مجهولين، وأحيانا حتى اللاعبين المعروفين قد يجيشون ضد الحوار الإنساني، سواء كان حوار إنساني شامل، أو لهدنة مؤقتة، وذلك لتحقيق مكاسب سياسية وإقتصادية.

ومن أبرز معوقات الحوار التي يروج لها الإعلام هي التنميط، فمثلا تجد الإعلام الغربي ينمط الحكام والرؤساء بالدكتاتوريين، الجمهور العربي منساق ومستسيغ لهذا التنميط، وذلك لسببين، الأول لأنهم

يعتقدون أن الإعلام الغربي لا يكذب، والثاني لأنه جمهور لا يقرأ، ولا يتابع تفاصيل الأحداث الدولية والإقليمية، لذلك يصدق هذا التنميط، علما أنه حتى في تلك الدول الغربية لا تلبى الحكومات مطالب الشعوب، فحين خرج الملايين طلبا لعدم ضرب العراق لم يستمع إليهم أحد، بينما حين خرج الآلاف فقط بالمطالبة بعدم قصف النظام السوري لبیت مطالبهم بسهولة، والسبب هو أنه في الأولى لم تكن المطالب متماشية مع رؤية الدولة\الرئيس، أما في الثانية فكانت متماشية جدا، وهؤلاء قد يعدون من اللاعبين غير الرئيسيين لكن المؤثرين في تعطيل الحوار!

أرى في مسألة الحوار الإنساني يجب أن يكون الإعلام فيها بصفات النبوه، بمعنى منزه عن الشخصية، والمكاسب الشخصية والسياسية، ويعمل بالفعل على تعزيز الحوار الإنساني، والتوليف بين أبناء الوطن الواحد لا التفريق بينهم، وكعرب إن كنا لا نستطيع أن نتحكم في التنميط الذي يفرضه الإعلام العالمي، فيجب نراعي ضمائرنا في أداء وظائفنا الإعلامية، وللتذكير فقط فإن الديانات جميعا -الكتابية والوثنية- جاءت من أجل السمو بالإنسانية، والأعلامي المحترف هو من يسمو بأخلاقه فوق أي مكاسب!!

ولو عدنا للمثال السوري مرة أخرى، فمحطة عريقة مثل محطة البي بي سي مثلا، بالرغم من إلزامها الحياد في معظم الأحيان، إلا أنها في الشأن السوري كانت تتبع بروباجاندا معينة، فحتى نهاية عام 2014 كانت المحطة توجه الرأي العام ضد النظام السوري، لذلك ترى مشهد الشابة التي تقول لشار الأسد "أنت الإرهابي"، تعاد في اليوم بين كل البرامج وخلالها وخلال نشرة الأخبار، لكن الآن ومع التحول نحو قبول الأسد كلاعب في مستقبل سوريا -بعد دمار سوريا وموت الآلاف- صار السيدة المسنة التي تقول "الأمان بدنا الأمان" هي التي تتكرر!

بشكل عام نادرة هي الشبكات الإخبارية المحايدة، وقليلة أيضا تلك التي تأتي بالأخبار من الخطوط الأمامية للنزعات، وفي هذا السياق أرى لفت النظر لشبكة الأنباء الإنسانية (إيرين) **Integrated Networks (IRIN) Regional Information**، التي تعد واحدة من الشبكات الإخبارية التي تأتي بالأخبار من الخطوط الأمامية للنزاعات والكوارث الطبيعية، وتقدم أخبار وتحليلات إنسانية لأجزاء من العالم لا تحظى بما يكفي من الاهتمام، أو تعاني من سوء الفهم أو التجاهل، أي أنها تهتم بحالات الطوارئ الإنسانية، ولقد كانت الشبكة جزء من الأمم المتحدة لمدة 20 عاما، لكنها منذ بداية 2015 أصبحت مؤسسة إعلامية مستقلة غير ربحية.

5. المناقشة والتوليف Dissection and synthesis

وفقا لنظريات "علم اجتماع المعرفة" أن ظهور مفهوم معين أو تلاشي، لا يتم صدفة، لكن نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل الثقافية والسياسية وحتى الاقتصادية، وعليه: ماذا كانت العوامل التي أدت لظهور مفهوم الحوار الإنساني؟ هل هي تراجع دور الأديان أم صعودها؟ هل هو أنتشار الصراع الأيديولوجي بعد ثورات الربيع العربي؟ أم أن الثورة المعلوماتية وتطور وسائل الإعلام والاتصال إستدعت ضرورة ظهور هذا المفهوم وإبرازه؟

من منظور بعيد عن نظريات المؤامرة، وعلى مبدأ موضوعي بحث، أرى أنها كل تلك الأسباب مجتمعة، ولكنها جاءت بتسلسل مدروس على النحو التالي:

بعد الحرب العالمية الثانية ساد العالم نوع من الرقي الإنساني، كردة فعل على الدمار الذي حل بالعالم أثناء حربين عالميتين متتاليتين، تم إعلان حقوق الإنسان عام 1948، وربما نتيجة هذا الإعلان أو ذاك الرقي تم إعلان إستقلال دول العالم الثالث الواحدة تلو الأخرى، لدرجة أنه في السبعينيات أي خلال الحرب الباردة ظن البعض أن الخريطة السياسية للعالم قد أرسيت ولن تتغير أبدا، ولن يكون هناك سببا يدعو لتغييرها!

لكن بعد إنتهاء الحرب الباردة في بداية التسعينيات، أعلنت وتشكلت دول جديدة في أوروبا الشرقية، وصارت السياسية العالمية أحادية القطب، وانتشرت مفاهيم "كالعولمة" على الساحة الدولية وفي المحافل الفكرية والثقافية والسياسة، بهدف توحيد الثقافة العالمية، بالرغم من أن الجمال في التنوع لا التشابه!

الخريطة السياسية للعالم التي حددتها الدول الإستعمارية وشركات البترول العالمية في بداية النصف الثاني من القرن العشرين لم تأخذ في الإعتبار بعض الأقليات، التي شعرت أنها مستضعفه في خضم

وجودها ضمن دول لا ترتبط معها في أهم الروابط الثقافية كاللغة والدين، وأرتأت أنها يجب أن لا تكون تحت مظلة الدولة التي تنتمي إليها: كالأمازيغ في ليبيا، وقبائل جنوب السودان، والأكراد في كل من سوريا والعراق وإيران وتركيا، وعليه فإنه مع ظهور الخريطة السياسية تلك بزغت حركات مناوئة تطالب بالإنفصال، أو حتى الحكم الذاتي على الأقل، بينما لم تعترض على تلك الخريطة السياسية أقلية أو أكثرية دينية أو طائفية.

وفجأة، وأثناء غليان ثورات الربيع العربي التي طالبت بالحقوق الأساسية للإنسان، انفصل جنوب السودان عن السودان في 9 يوليو 2011، بعد إستفتاء شعبي لسكان الجنوب، ثم طالبت دارفور بالإنفصال، بالرغم من أن السودان لم تكن من الدول التي طالبتها ثورات الربيع العربي! والمضحك المبكي أنه خلال أقل من 3 سنوات من الانفصال، قام إنقلاب عسكري في جنوب، ودمرت الدولة حرب أهلية، وعاش سكانها في مخيمات للأمم المتحدة، لولا الحوار الأخير والاتفاقية الأخيرة، علما أن هذا الدمار لم يحدث أثناء معارك الانفصال عن السودان.

أما في الدول التي طالبتها ثورات الربيع العربي فكانت النتيجة إنقسامات بين مكونات الشعب الواحد، إنقسامات لم تكن موجودة قبل الربيع العربي، بل أنها لم تخطر على بال أحد، ففي تونس ومصر اللتين تعدان من أكثر دول الربيع العربي إستقرارا مقارنة بالدول الربيعية الأخرى، تجد أن الفرقة حصلت بين أبناء الدين الواحد بل الطائفة الواحدة، لكن فرقتهم السياسة، حين أنقسمت الدولة بين السنة من الإخوان والسنة من غير الإخوان، أي العلمانيين إن صح التعبير. أما ليبيا المنهكة بالحرب لم تحقق شيء من حقوق الإنسان التي قامت من أجلها الثورة، وهي لم تشرحها الإنقسامات السياسية الدينية فقط، بل أن قبائل الأمازيغ يطالبون بالإستقلال أيضا. وأخرا، في اليمن وسوريا تحولت ثورات الربيع العربي إلى صراع طائفي بحت، بين السنة والشيعة في اليمن، والسنة وباقي الطوائف في سوريا، أما في البحرين، فلقد بدأت الثورة طائفية كما أنتهت بها، حيث قامت بها الطائفة الشيعية في البحرين.

إذن هذا الكم المهيول من الإنقسامات الطائفية بين مكونات الشعب الواحد، تصنع ضرورة لظهور مصطلح الحوار الإنساني، لكن المصطلح ظهر حتى قبل الإنقسامات في العراق، وأسست مراكز لتسوية الخلافات قبل هذا بكثير، وتلك المراكز لم تعمل إلا على دول العالم الثالث، التي كانت مستعمرة، ثم صارت مستقلة!

في كل الأحوال، لعلها صارت ضرورة أن يتحول "الحوار الإنساني" من شعار إلى استراتيجية، في ظل تغيير الثوابت الجيوسياسية والتطورات العالمية، فثورات تشبه ثورات الربيع العربي، ظهر في بداياتها المحتجون أبطالا، وانتهاوا بمهزومين، وظهر فيها دعاة التدهئة، الذين نعتوا بعدم الوطنية وتعريض البلاد للخطر، قامت ثورات تشبهها في كل من البرازيل وهونج كونج-الصين، وأوكرانيا، وكادت أن تقوم في المكسيك أيضا، وتم التوصل لحل بين المعارضين والحكومات في هونج كونج وبرايليا، وتم التوصل لحل لمسألة أوكرانيا بعد تقسيم أوإقطاع أجزاء منها، وكأن المطالبة بالديمقراطية فيروس ضرب قارات الأرض جمعا، يشبه فيروس الأيدز الذي ظهر في أفريقيا وأنتشر حول العالم، ويقال أنه ظهر بفعل فاعل!

لعب الإعلام دورا بارزا في الترويج لثورات الربيع العربي، وصار ملحا على الإعلام العربي الترويج للحوار الإنساني، لا لأنه ضرورة ملحة في الوقت الحاضر. لكن ليتحول من شعارات إلى سلوك ونمط حياة، وبالتالي تتلاشى النزاعات الغير مبررة بين أبناء الشعب الواحد.

وبالعودة للدول العربية، يطرح البعض أن الدول العربية تعاني من مشكلة الإنسجام الإجتماعي والثقافي بين مكوناتها، لأنها لا تستطيع إدارة التنوع المذهبي، السؤال الذي يطرح نفسه: لم لم يظهر هذا الاختلاف إلا الآن؟ لم لم يكن موجود قبل إحتلال العراق أو ثورات الربيع العربي؟ والسؤال الآخر، لم هو ليس موجود بدولة الإمارات على سبيل المثال، وهي دولة عربية فيها إختلافات عرقية ومذهبية؟؟ بل العكس بالنسبة لدولة الإمارات، قد يكون عدم التجانس -وخاصة الإجتماعي منه- موجود في السعبيات حتى نهاية الثمانينيات، لكنه أنكمش منذها، ولم يعد موجود لا سياسيا ولا إجتماعيا، بل أنه إجتماعيا يتدوال للتفضيل وإستحسان الآخر لا العكس. وربما لأن الأيدلوجيا التي تتبعها حكومة دولة الإمارات إيدلوجية تحترم الإنسان وتتعامل مع كل لوازمه بوصفها دائرة يحرم فيها التعدي عليها من قبل أي إنسان آخر، حالها بذلك حال المجتمعات الإنسانية المتقدمة والمتطورة، والتي تعيش حقائق التنوع على أكثر من صعيد ومستوى، فالحكومة لم تتجاهل حقائق التنوع في المجتمع الإماراتي فقط، بل أنها أحترمتها، والتميز فيها للتميز، وليس لذي طائفة أو قبيلة معينة.

وفي هذا السياق مثال دولة الإمارات يوضح الخطوط الفاصلة بين السلام والحرب، فالسلام لا يعني غياب الحرب أو العنف فقط، بل يعني توفير بنى تحتية فعالة على المستوى الاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي والسياسي لضمان استمرار السلام، وهذا مزدهر في الإمارات، التي أتخذت سياسة العدالة والتضامن الإنساني من أجل السلام، وحافظت على كرامة الإنسان الإماراتي والمقيم، وسنت القوانين التي تمنع العنف المعنوي، كما كانت قوانين تمنع العنف المادي.

6. الخاتمة والتوصيات

في ثلاثية الحوار الإنساني وحقوق الإنسان والإعلام، نوصي بالتالي:

أولاً: يجب أن لا يكون الحوار الإنساني ترفاً مخصصاً للمنتديات والمؤتمرات، بل من الواجب الوطني أن يتحول إلى حاجة أساسية، لحل الفوضى العالقة في دول كدول الربيع العربي، ويجب أن لا يكون حكراً على قيادات المعسكرات المتنازعة، بل يجب أن تشمل المجتمعات من داخلها، فمن العبث التفكير في حوار بين القيادات حين أن فصائل المجتمع ومكوناته تتقاتل حتى في دار اللجوء والمنافي، ففتح الحوار بين أفراد المجتمع ومكوناته الثقافية والسياسية مهم جداً أثناء إعادة بناء السلام والدولة، فهذا سيتحول الحوار الإنساني إلى سلوك يومي يقي المجتمعات من التعصب والعنف، ويقود لتسوية الاختلافات.

ثانياً: احترام حقوق الإنسان مسألة جوهرية أثناء وبعد تحقيق السلام، فالإتفاق على حقوق الإنسان، يعني بداية موفقة للحوار الإنساني، فلا يمكن أن يوجد سلام حقيقي بدون عدالة، لذلك يعد احترام حقوق الإنسان والتعهد بتطبيقها الطريقة المثالية للحل الدائم للنزاعات التي تندلع في العالم، وأحياناً قد تكون المواجهات من المسببات الرئيسية لانتهاك حقوق الإنسان، كما حصل في دول الربيع العربي، التي أندلعت بها ثورات حقوقية، ولأن العنف لم يولد إلا العنف، تحولت الثورات إلى صراعات عسكرية عرقية في بعض الأحيان، وطائفية في معظمها، ورغم هذا يمكن تحقيق السلام وحقوق الإنسان، عن طريق الحوار الإنساني.

ثالثاً: للإعلام دور أساسي في دعم الحوار الإنساني وتحقيق السلام، وهنا يجدر القول ليس الإعلام المحلي فقط، بل يجب تظافر أجهزة الإعلام العالمية من أجل سلام عالمي، لأنه وفقاً لنظرية الفوضى لو رفرت فراشة بجناحيها في الصين سيشتعل بتأثيرها في البرازيل، ومثال ثورات الربيع العربي ليست بعيدة! وحين الحديث عن دور الإعلام نعني الإعلام النزيه، الذي من خلاله الترويج لحقوق الإنسان بروح الحوار الإنساني، عبر وسائله المقروءة والمسموعة وبرامج التواصل الاجتماعي، بالإضافة للأدوات الصحفية التقليدية، كالزوايا اليومية أو الأسبوعية، والتحقيقات الإخبارية، والدراسات والدراسات المقارنة والمذكرات والتقارير الأولية والدورية والتقارير المضادة (التقارير الموازية - تقارير الظل) التي تصدرها في هذا الشأن المنظمات غير الحكومية ذات الصلة.

قائمة المراجع

- أسعد السحمراني، 2015، الإعلام والحوار الحضاري-دراسة، نشرت على موقع أزال لدراسات وبحوث الحوار.
حسين جمعة، 2008، ثقافة الحوار مع الآخر، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد الثالث+الرابع، ص 11-20.
فيلبس بيك كريتك، 1994، التفاوض من موقعين غير متكافئين، مكتبة العبيكان.
مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان 2007 المعاهدات الدولية الأساسية لحقوق الإنسان، الأمم المتحدة، نيويورك، 226.

Hugo Slim, 2007, A guide to mediation, Enabling peace processes in violent conflicts, Centre for Humanitarian Dialogue, Geneva, Switzerland, 23pp.

Toby Porter, 2003, The Interaction between Political and Humanitarian Action in Sierra Leone, 1995 tp 2002, Centre for Humanitarian Dialogue, Geneva, Switzerland, 79pp.